مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

٣ ـ الشوقيات

للدكتور زكي مبارك

توت عنخ آمون — لعنة الفراعنة — حقيقة أغرب من الخيال — بين حافظ وشوقي — بين الظلم والعدل — أحقاد العبقريين — ألاعيب الحظوظ — توضيح — النونية الآمونية — ثورة الجيل — خلاصة البحث

توت عنخ آمون

في الجزء الثاني من الشوقيات قصيدتان في توت عنخ آمون، ولهاتين القصيدتين قيمة عظيمة، فقد صرّح شوقي نفسه أن أعظم قصائده هي النونية الآمونية:

درجتْ على الكنز القرون وأنت على الدَّنّ السنون

أما حافظ ابراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقي هي البائية الكارنارفونية:

في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرئ رهنٌ بطيِّ كتابه

فما حديث هذه القصائد الجياد؟

كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية، وقد سمح له غناه أن ينفق على الحفريات بسخاء، فكلّف المستر كارتر أن يحفر في «وادي الملوك» بالأقصر عساه يهتدي إلى مقبرة لم يهتد إليها اللصوص في العصور الخوالي

وبعد متاعب كادت تودي بصبر اللورد كارنارفون عثر المستر كارتر على مقبرة توت عنخ آمون في سنة ١٩٢٢

وقد التفت الباحثون من الأوربيين والأمريكيين إلى هذا الكشف أعظم التفات وقُدِّمت التهاني إلى كارتر وكارنارفون من الهيئات العلمية في الغرب والشرق، ودُعيت الصحافة إلى معاينة ذلك الكشف الخطير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين: زكي مبارك مندوباً عن جريدة الأفكار، والدكتور هيكل مندوباً عن جريدة السياسة، والأستاذ المازني مندوباً عن جريدة الأخبار

ولن أنسى أن المستر كارتر حدثنا عن السبب في نقص بعض محتويات المقبرة، وكان الرأي عنده أن أيدي اللصوص قد امتدت إليها في عهد «الأسرة العشرين» فكتبتُ في «الأفكار» أقول إني أرجح أنها سُرقت في «القرن العشرين» ولم يفت مراسل «التيمس» أن يُبرق إلى جريدته بهذا التلميح، فنشرته بدون تسويف، لتداعب به اللورد كارنارفون، وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح للصحفيين بزيارة المقبرة، ولهذا الامتناع صدًى في شعر شوقي سنشير إليه قبل ختام هذا الحديث.

لعنة الفراعنة

هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد الموت. ولهذا الخرافة أصل، فقد وُجد على كثير من القبور المصرية والكلدانية دعواتٌ حِرار على من ينبشون قبور الملوك. وفي القبور المصرية ما يسمّى «الرَّصَد» وهو تمثال يقام في مدخل القبر لتخويف اللصوص، وهو حقًا مخيف، لأن القدماء كانوا يتوهمون أنه مزوَّد بالروح وبالسلاح، وأنه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان. وهل يستأذن اللصوص؟!

فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد كارنارفون؟

أُبرِقَ إليه المستر كارتر فحضر على عَجَل ليشهد الكشف الجديد، وبعد أيام لسعته بعوضة وهو نائم في خيمة بجوار المقبرة فمات.

حقيقة أغرب من الخيال

كان اللورد كارنارفون أهدى إلى بنت ملك الإنجليز عقداً من العقود المصرية القديمة، ففرحت به فرحاً عظيماً، وأثابت مهديه أجزل الثواب، فلما سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزعت العقد من جيدها لئلا تلحقها لعنة الفراعين!

وفي قصة البعوضة يقول شوقي:

صادت بقارعة «الصعيد» بعوضةٌ في الجوّ صائدَ بازه وعُقابه

وأصاب خرطومُ الذبابة صفحةً خُلقت لسيف الهند أو لذُبابه

طارت بخافية القضاء ورأرأتْ بكريمتيه ولامستْ بلُعابه

ثم يعلل شوقي تلك الحادثة تعليلاً علميًا فيذكر أنها من نتائج الوهم الذي يُضعف الأعصاب:

لهُ تسمعنّ لعُصبة الأرواح ما قالوا بباطل علمهم وكِذابه

الروح للرحمن جلّ جلالهُ هي من ضنائن علمه وغيابه

غُلبوا على أعصابهم فتوهموا أوهام مغلوبٍ على أعصابه

بين حافظ وشوقي

كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل إلى أبعد الحدود ، وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظاً كان رجلاً عذب الروح ، وكانت له مع المحضين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقي حين يشاء

وما أذكر غلبة شوقي على حافظ إلا تعجبت . فقد كان حافظ غاية في الذكاء والفكاهة ، وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علماً يفوق الوصف ، وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية أعجوبة الأعاجيب ، فكيف تفوّق عليه شوقي وكان رجلاً يدل مظهره وحديثه على أنه فردٌ من سواد الناس لا يمتاز بعبقرية ولا نبوغ ؟

أكاد أجزم بأن « شهوة الحديث » هي التي أضعفت شاعرية حافظ ، فقد كان كثير الحديث ، وبالحديث وصل إلى ألوف القلوب ، وبالحديث ضاع ، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لا تصلح بعدها للغناء

لو أن أحاديث حافظ دُوّنت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك شوقي من الثروة الشعرية ، ولكان من الممكن أن يعدّ من أقطاب التاريخ الأدبي في هذا الباب ، ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشؤون

أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالذخر من قواه النفسية ، وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث ، فظفرت جهوده بالخلود .

كان حافظ يحدّث من يلقاه بإطناب وإسهاب ، فلا ينقضي اليوم إلا وهو متهالك من فرط الإعياء . وكان شوقي يهرب من الناس حين يشرع في النظم ، فلا تراه إلا هائماً على وجهه من طريق إلى طريق ، وفي حال تنذر بالجنون !

كان حافظ يطيل محاورتي حين كنت موظفاً بدار الكتب المصرية في سنة ١٩٢٥ ، فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلني على أحد مقاتله النفسية ، فحدثني أن أعظم ما يغيظ حافظاً أن تخبره أنك رأيت شوقي ينتقل من ترام إلى ترام وفي يده سجارة وعلى وجهه أمارات الذهول .

وحملني الشوق على تجربة هذه الوصية ، فأخبرت حافظاً أني رأيت شوقي كثير التنقل في الشوارع ، وفي حال يغلب عليه الانفعال ، فصرخ حافظ : في أي غرض يعالج الشعرَ هذا المخبول ؟ إنه يكره أن يقترن اسمي باسمه ، مع أن الناس ظلوا يقولون في أكثر من عشرين سنة : شوقي وحافظ كما يقولون : بيض وسميط !

بين الظلم والعدل

كانت الأقدار سمحت بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودةٌ دامت نحو سنتين . وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء وأشياء . ومن المؤكد أنه من أعاظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي ، فقد كانت أستاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال ، وكان روحه من ألطف الأرواح ، وفي لحظة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حافظ في مجاورته ، وهو منفيٌّ بالأندلس ، فأجاب وقد تربدّ وجهه بالغيظ : أنا لا أروى غير شعري !

فقلت : ومن الوفاء للأدب أن تروى شعر من يناجيك وأنت غريب !

وفي اليوم التالي لقيت حافظاً فسألته برفقٍ : أتحفظ شيئاً من شعر شوقي ؟ فأجاب : لقد قتلني شوقي حين قال في اللورد كارنارفون :

أفضَى إلى حَتم الزمان ففضّهُ ... وحبَا إلى التاريخ في محرابهِ
وطوى القرونَ القهقرى حتى أتى ... فرعونَ بين طمامهِ وشرابهِ

أحقاد العبقريين

ومع هذا فأحقاد العبقريين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليال . ففي سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقي ، فأنشد حافظ قصيداً جاء فيه :

أميرَ القوافي قد أتيت مبايعاً ... وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

فدعاه شوقي وقبّل جبينه والدمع في عينيه . . . ثم شاء القدرَ أن يموت حافظ قبل شوقي بأسابيع ، فقال شوقي يبكيه :

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقتَ وكل طول سلامة ... قدرٌ ، وكل منية بقضاء
ووددت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فداني
الناطقون عن الضغينة والهوى ... الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدّام ويبنى مجده ... بكراسم الأنقاض والأشلاء

ماحطّموك وإنما بك حُطّموا ... من ذا يحطّم رفرفَ الجوزاء
أنظُر فأنت كأمس شأنك باذخٌ ... في الشرق واسمُك أرفع الأسماء
بالأمس قد حلّيتني بقصيدة ... غرّاء تُحفَظُ كاليد البيضاء
غِيظَ الحسود لما وقت بشكرها ... وكما علمتَ مودتي ووفائي

وهي أعظم قصيدة قالها شوقي قُبَيْل الموت . ولعلها خير ما جاد به خاطره برفق وحنان[1]

أروع الظروف

مات حافظ وشوقي في موسم واحد هو صيف سنة ١٩٣٢ فارتجّت الأقطار العربية لموت شاعرَيْن كانت إليهما قيادة الغناء في أعوام تزيد على الثلاثين

وفي خريف تلك السنة بدا لإحدى شركات السجائر أن تخرج عُلبة باسم شوقي وعلبة باسم حافظ ، فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش !

وسعيد الدنيا سعيد الآخرة ، كما يقول المصريون !

توضيح

لهذا الاستطراد غاية ، هي خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ ، ولها مجال في مسابقة الأدب العربي لهذا العام السعيد . وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقي من معاولات عادت على الشعر بأطيب الثمرات

النونية الأخيرة

مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقي إنها أعظم ما خطته يمناه ، فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب الفيلسوف ، وزعم خياله أن الموتى لو شعروا بما في قبر ذلك الملك لنبشوه بدون استحياء ! ثم مضى فصوّر حياة ذلك الفرعون في حدود التصاوير المرسومه بجدران قبره المطموس

والتلطف مع شوقي لا ينسيني واجب النقد الأدبي ، وهذا الواجب يدعوني إلى النص على أن شوقي أسرف في وصف مقبرة توت عنخ آمون ، فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية ، خصائص لم ترها عيناي حين زرتها قبل عشرين عاماً ، ولعل شوقي لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد ، وإنما تمثّل ما رآه في بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا احتراس

ثورة الجيل

في هذه النونية تحدّث شوقي عن عصر توت عنخ آمون وعدّه عهد « الفرد المبين » ليجوز له في قصيدة ثانية أن يقول إن الدستور جعل عصره دون عصر « فؤاد »

والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ آمون :

سافرَ أربعينَ قرناً عدّها ... حتى أتى الدار فألقى عندها
إنجلترا وجيشها ولُرْدها ... مسلولة الهندي تحمي هندها
قامت على السودان تحمي سدّها ... وركزت دون (القناة) بَندها
فقال والحسرةُ ما أشدّها ... ليت جدار القبر ما تدهدها
وليت عيني لم تفارق رَقْدها ... قم نَبِّئي يا بَنْتَئورُ ما دها
مصرُ فتاتي لم تُوقِّر جدها ... دقت وراء مضجعي جزْبندها
وخلعتْ ظباءها وأُسدها ... وسكب الساق الطلا وبَدّها
قد سحبتْ على جلالي بُردها ... ليت جلال الموت كان صدها

وهذا شعرٌ يفسده الشرح ، وهو أيضاً شعر لا يقوله غير شوقي إمام الصياغة الشعرية ، وأصدق من تغنّى بأمجاد النيل

وفي هذه القصيدة نصٌّ شوقي على أن :

مصر الفتاة بلغت أشدّها ... وأثبت الدم الزكيُّ رُشدها
ولعبتْ على الحبال وحدها ... وجربتْ إرخاءها وشدها
فأرسلت دهاتها ولُدّها ... في الغرب سدوا عنده مسدّها
وبعثتْ للبرلمان جندها ... وحشدتْ للمهرجان حشدها

ثم أشار إلى معارضة المستر كارتر في زيارة المقبرة فقال يخاطب الفرعون :

لحدك ودّ نه النجومُ لحدها ... أريتنا الدنيا به وجدّها
سلطانَها وعزها ورغدها ... وكيف يُعطَى المتقون خُلدها
أبوابك اللائي قصدنا قصدها ... كارترُ في وجه الوفود ردّها
لولا جهودٌ لا تريد جحدها ... وحُرمةٌ من قريك استمدّها
قلتُ لك اضربْ بيده وقُدّها ... وابعث له من البعوض نُكدها

والقارئ يفهم أنه يشير إلى البعوض الذي صرع اللورد

(١) كان شوقي في أخريات أيامه مصاباً برعشة عنيفة تتمثل في اضطراب يديه بدون انقطاع ، ومع هذا فقصيدته في رثاء حافظ لا تدل على تعب ولا إعياء . أما آخر قصيدة نظمها شوقي فهي قصيدته في افتتاح معهد مشروع الفرش برياسة الدكتور علي باشا ابراهيم ، وبعد أن صفق المحتفلون وأطالوا التصفيق لقصيدة شوقي كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقاً لجريدة الجهاد تنعى به شوقي ، فعرفوا أن تصفيقهم كان تحية تلقاها الشاعر وهو على سرير الموت ... يرحمك الله يا شوقي !